تمهيد

لعل من أهم سمات العقود الأخيرة على مستوى العالم ، هي المحاولات الحثيثة التي تبذل هنا وهناك ، لخلط الأوراق وصرف الأنظار وحرف بوصلة المعرفة عن وجهتها الصحيحة، وكتابة تاريخ من نمط جديد،تغيب فيه وقائع وتستحدث غيرها . وإزاء ذلك لابد من الوقوف بوجه هذه المحاولات وفضح الدخيل والمزور من الوقائع والأحداث، والعمل على حماية بوصلة المعارف من أن تحيّد عن الحقيقة بفعل الطارئين والمزورين والدخلاء ومن لاذمة لهم، ورد الاعتبار للقيم والمفاهيم التي تشكل المقياس الحقيقي لحياة الشعوب ، وقد نالها الأذى الكبير بقصد تعويمها وتسفيه كل نفيس تربت عليه الأجيال والشعوب، وأحداث أكثر عدد من الثقوب في جدران الوطنية والمواطنة والأوطان، وبالتالي إسقاطها على أساس أنها قيم بالية لا تستحق البقاء .ويجمع العديد من المؤرخين والمهتمين بدراسة التاريخ وأحداثه،على أن وجود الذاكرة التاريخية ، من شأنه أن يعلم ويحرك ويحفظ، ويمنع التريخ من أن يكون سجلا باردا للموتى، بل أن وجودها سيجعل التاريخ وعاء لحياة ثرة تعج بالامثولات والمعارف والدروس والمقارنات، التي تمد جسورا تربط الماضي بالحاضر، وبها إمكانية كبيرة لان تستطيل إلى المستقبل،فضلا عن كون وجودها سيضبط اتجاه البوصلة ويصحح المسار. ومما لاشك فيه، فإن الحديث في وقائع التاريخ الراهن هو أكثر حساسية وخطورة من الحديث في وقائع التاريخ القديم ،لان المستفيدين من رواية الوقائع الآنية ما زالوا على الساحة، والحديث عن هذه الوقائع ينعكس عليهم(بنحو وآخر)،كونهم كانوا ولازالوا جزءا منها أو من

حواشيها فيما يمكن أن تسوغ أحداث ووقائع التاريخ القديم ، على أنها(ربما) اجتهاد أو ترجيح لاحتمال على غيره، وبالتالي تقل أعداد المستفيدين أو المتضررين . من هنا ، فأن من الضروري الحرص الشديد على أهمية إظهار الحقيقة وهي ساخنة وخطوطها واضحة وشخوصها مازالوا أحياء ومؤثرين ، وعدم انتظار مرور عقود عديدة (ربما)لإظهارها وهي باردة و باهتة لا تسترعي الإنتباه والتعليق. نعم ،إن من الواجب إظهار الحقيقة مهما كانت مؤلمة ، وتوثيق تفاصيلها،لتظهر وتتغلب ولا تأخذ طريقا إلى الظلمة والغياب، وفي إطار الظروف التي أحاطت بها والمناخات التي غلفتها، والإسهامات الشخصية لتي قدمت (بشجاعة) و(نكران ذات) ، من أفراد يجد البعض أفعالهم هذه (ضربا من الجنون) أو (مغامرة غير محسوبة العواقب) في أحسن الأحوال، بخاصة وأنهم تصدوا لأحداث مازالت حية وساخنة ،ولقوى مازالت مؤثرة على الساحة، ولشخوص ما زالوا على قيد الحياة.وإزاء ذلك تبدو الرؤية ملتبسة والأحكام على أدوار الآخرين وأفعالهم مختلفة،لكني (أجزم) أننا وإزاء رجل اسمه (مختار لماني) لابد أن تكون رؤيتنا جميعا متفقة في الحكم عليه وعلى أفعاله ، (سواء اتفقنا أو اختلفنا معه ..أحببناه أو كرهناه)،وهذه خاصية تحسب له وليس لمن اتفقت أحكامهم عليه، فما يختلف به (مختار لماني) عن الكثير من أقرانه من الدبلوماسيين، يتمثل في انه جمع في شخصيته ، سلوكا عاليا وفكرا مبدعا ومتنوعا وتواضعا وترفعا وطاقة وإصرارا وإخلاصا وحبا للحق ورؤية سياسية قل نظيرها ، تؤطرها جميعا مواقفه المبدئية وحياديته وانفتاحه، فضلا عن الثقة العالية والحذاقة والخبرة والحساسية التي تكاد أن تكون (مفرطة) في التعامل واستعمال اللغة.فهل كان الدبلوماسي المغربي (مختار لماني) الذي جمع كل هذه الصفات الحميدة، والذي عمل سفيرا لمنظمة المؤتمر الإسلامي نحو سبع سنوات في الأمم المتحدة ..مغامرا لم يحسب عواقب قبوله منصب سفير

الجامعة العربية إلى العراق عام ٢٠٠٦ ، غير آبه بالمفخخات والمتفجرات والعبوات الناسفة وعمليات الاغتيال والاختطاف والعدائية الواضحة لدى أطراف فاعلة على الساحة العراقية إزاء العرب والعروبة،ومتجاهلًا حتى لقب (سفير الأمويين) الذي أطلقته عليه بعض الجماعات المتطرفة، وما ينطوي عليه هذا اللقب من أبعاد خطيرة على حياته في ظل حملات القتل الطائفي التي تعصف بالعراق والتي راح ضحيتها عشرات الآلاف من الأبرياء ،و منهم من قتل لمجرد أن (اسمه أو لقبه العائلي) يتقاطع مع أجندة الطائفيين؟..وهل كان السفير (مختار لماني) عابثا بحياته وهو يقف في المنطقة الحمراء(red zone) لوحده من دون حماية فعلية و أي تحوطات أمنية، وهي المنطقة التي قد يدفع المرء حياته فيها ثمنا لطرفة عينه سهوا أو تأملا أو حسن ظن أو حتى صدفة ؟..وإذا كان (النفي)جوابا على كل الأسئلة السابقة ،فكيف يمكن فهم عدم اكتراث السفير (مختار لماني) بحياته وبالأخطار الجدية التي تحدق بها ، وهو يدخل العراق مجردا من أي أغطية (إقليمية أو دولية أو محلية)،ولا يحمل سوى حبه للعراق وأهله وانتمائه إلى هذه المنطقة،في وقت كان فيه مثل هذا الحب وهذا الانتماء في العراق ، تهمة قد يدفع المرء حياته ثمنا لها؟ ..ثم هل كان السفير (مختار لماني) حالما وهو يخترق الساحة العراقية وكأنه يحمل جردل ماء يريد أن يطفيء به النيران التي كانت تلتهم البلاد والعباد ؟

إن الأسئلة التي كانت تتوالد في راسي كلما التقيت السفير مختار لماني،شكلت جزءا من إعجاب ودهشة وإكبار وتقدير لهذا الرجل،وجزءا من ازدراء للذين لم يمنحوه فرصة لإشعال ضوء في النفق المظلم الذي وصلت إليه أوضاع العراق ، بخاصة عندما ازداد ليل العراق سوادا وطولا ، بالتطهير المذهبي والعرقي واستشراء العنف والقتل على الهوية. ولم يكن الضوء(عند اللماني) إلا ذلك المشروع الذي يتقصد وفاق العراقيين ، وكان الرجل حريصا على أن يفعل عناصره ويجعلها

أساسا لنهوض العراق من جديد والانتصار على محنته بالتمسك (بالوطنية) و(المواطنة) ، بديلا عن كل ما حملته المياه الآسنة من أمراض وروائح (جيف) لأفكار وأفعال، طالما كانت الداء الذي نخر في جسد وحدة وانتماءات ومواطنة شعوب عديدة، ارتضت (بجهل) بعضهم أو(خيانة)بعضهم أو(عدم مبالاة) بعضهم أو (قلة حيلة) البعض الآخر ، تمرير لعبة (فرق تسد) برغم أنها لعبة قديمة طالما مارستها القوى الاستعمارية ضد شعوب عديدة .لقد قبل (مختار لماني) منصب سفير الجامعة العربية في العراق ،وراح يسعى منذ أول يوم وطأت أقدامه ارض العراق الأسير في نيسان/ أبريل٢٠٠٦ ، إلى وصل ما انقطع ولحم ما انكسر ولم ما تشتت، وكان شديد الحرص على إيجاد حلول تسهم في نفي العراقيين لكل فرقة ولكل تشرذم وليس في نفيهم لعراقيتهم،والركون إلى تشرذمهم وتفرقهم كحبات عنب انفرطت من عنقودها،وكأنه حالة طبيعية وصحية . لذلك كرس (اللماني) جدول أعماله في الأشهر الثلاثة أو الأربعة الأولى من وجوده في العراق، للقاء اكبر عدد من العراقيين من كل الفئات والطوائف والاستماع إلى وجهات نظرهم ورؤيتهم لواقع حال العراق والحلول التي يرونها للخروج من الكارثة ،وقد خرج بنتيجة أن الحلقة المفقودة في العراق هي (المواطنة) ونفي العراقيين لعراقيتهم في ظل تجاذبات الأطراف الداخلية والخارجية الفاعلة على الساحة ،وفي ظل الاصطفافات والتحالفات والأجندات وعمليات العزل والتفريق، التي تحولت إلى واقع على الأرض بعد الاحتلال بفعل سياسة وقرارات حاكم العراق الأمريكي (بول بريمر) [(١)] .

---

١١)بول بريمر مواليد ١٩٤١ عينه الرئيس الأمريكي جورج بوش حاكما للعراق في السادس من مايس/ مايو ٢٠٠٣، كان بريمر قد انضم إلى السلك الدبلوماسي عام ١٩٦٦، حيث كان مسؤولا سياسيا، واقتصاديا وتجاريا في سفارتي بلاده في أفغانستان ومالاوي. وفي الفترة بين عامي ١٩٧٦-١٩٧٩ كان نائب السفير والقائم بأعمال السفير في سفارة أمريكا بأوسلو في النرويج. كما تولى منصب المساعد التنفيذي والمساعد الخاص لستة من وزراء الخارجية الأمريكيين. وعين الرئيس الأمريكي=

ولابد أن السفير مختار لماني (وهو السياسي والدبلوماسي المحنك) كان يعرف جيدا،وحتى قبل قدومه للعراق عام ٢٠٠٦ ، أن تلك الاصطفافات والاستقطابات والتحالفات الهشة التي سعى (بريمر) إلى تثبيتها على ارض العراق ، قد خلطت الأوراق وأوجدت التباسا (مقصودا) بشأن ماهية المواطنة، لاسيما عند شريحة من العراقيين الذين يفتقرون المستوى المطلوب من الثقافة والوعي الوطنيين، وفي مواقف فئة من الجماعات والتيارات والقوى السياسية والطائفية المختلفة التي مارست فعليا دورها التأثيري وضغوطاتها على عقول وتوجهات فئة ليست قليلة من المجتمع العراقي، وبما يعوم لديهم فكرة المواطنة أو يشوه صورتها الحقيقية،بخاصة وان (فكرة المواطنة) قد صارت عند بعض القوى والمكونات العاملة على الساحة العراقية بعد الاحتلال والمتحكمة في مفاصل عديدة ومهمة من الحكم،عائقا أمام تحقيق طموحاتها(غير المشروعة) الأمر الذي جعلها بالضرورة تعمل على (شيطنة) فكرة المواطنة وجعلها تبدو في أذهان البعض، رديفا للإرهاب أو عاملا من عوامل الهدم وتقييد الحرية ووقف قطار الرفاهية الذي يمكن أن يصل

=الأسبق رونالد ريجان، بريمر سفيرا لبلاده في هولندا لمدة ثلاث سنوات منذ ١٩٨٣. وفي عام ١٩٨٦ عين سفير في وزارة الخارجية الأمريكية لشؤون مكافحة الإرهاب، حيث كان مسؤولا عن تطوير وتنفيذ السياسات الدولية لمكافحة الإرهاب التي تتبعها الولايات المتحدة. كما كان كبير مستشاري الرئيس ووزير الخارجية الأمريكيين بشأن الإرهاب في الأعوام الثلاثة التالية.وعقب ٢٣ عاما قضاها في السلك الدبلوماسي انضم بريمر في عام ١٩٨٩ إلى شركة كيسينجر أسوشيتس، وهي شركة استشارات يرأسها وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر. أصدر بول بريمر في عام ٢٠٠٦ كتاباً تكلم فيه عن فترة حكمه للعراق (عام قضيته في العراق: النضال لبناءِ غدٍ مرجو).ولم يكن بول بريمر سفيرا أو معتمدا أمريكيا لإدارة شؤون العراق المحتل ، بل كان حاكما مطلقا للعراق ارتبطت به مجموعة من القرارات سيئة الصيت كحل الجيش العراقي وقانون دارة الدولة الانتقالي ومجلس الحكم وقرار أجتثاث البعث والدستور الجديد وغيرها من القرارات التي شكلت بمجموعها الأرضية لتمزيق العراق وتدمير الدولة العراقية.

إلى محطات كل العراقيين، فكان لابد والأمر على هذا النحو أن يسعى السفير مختار لماني (وهو الحامل لمشروع وفاق العراقيين)، إلى الدعوة والعمل لقيام حوار عراقي –عراقي بين كل الجماعات والتنظيمات والزعامات المختلفة (عرب وأكراد وتركمان وكلدواشوريين وغيرهم ، ومسلمين ومسيحيين وصابئة ويزيديين وغيرهم)، بين من هم في العملية السياسية ومن هم ضدها وصولا لقواسم إنسانية وسياسية واجتماعية مشتركة، تزكي وتعظم الهوية العراقية الجامعة لكل الهويات الصغيرة (طائفية أو إثنية أو غيرها) وما تفرضه هذه الهوية من مباديء المساواة والعدالة وحقوق المشاركة،وبمعنى أكثر مباشرة: (السعي لا يقاض المواطنة العراقية من غفوتها القسرية).

وهكذا ، فأن قرار (مختار لماني) قبول مهمة سفير الجامعة العربية في بغداد ، تنفيذا لقرار القمة العربية في السودان القضي بتفعيل الدور العربي في العراق[1]،لم يكن قرارا عاطفيا مجردا من العقلانية(كما وصفه البعض) أو مغامرة لاعقلانية ، برغم ما تنطوي عليه هذه المهمة من مخاطر على المستوى الشخصي والسياسي ، فمن يقرأ الرسالة التي وجهها السفير مختار لماني إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية، وهو يبلغه فيها انسحابه من المهمة في العراق في شباط/ فبراير عام ٢٠٠٧ ، يدرك الأبعاد والعناصر السامية التي تكمن وراء قبوله أساسا بالمهمة وأسباب انسحابه منها فيما بعد ، ولعل العبارة التي وردت في رسالته تلك : (قبلت هذه المهمة ولم أتعامل معها في أي لحظة كدبلوماسي ، بل تعاملت من قلبي وببساطة باعتبار أن أهل العراق أهلي ...) تلخص بصدق كل ذلك .

(1)جاء في إعلان الخرطوم الصادر عن القمة العربية (١٨) المنعقدة في شهر آذار / مارس ٢٠٠٦ ، التأكيد على «الدور العربي» في العراق، خاصة بعد أن أبدى وزيرا خارجية السعودية والإمارات قلقا واضحا من النفوذ الإيراني الواسع في العراق. كما جاءت فيه دعوة إلى سرعة تشكيل حكومة وحدة وطنية في العراق تمهد الطريق لخروج القوات الأجنبية من أراضيه .

فالذي اعتبر قضية العراق قضيته وأهل العراق أهله ، لابد أن سخر كل إمكاناته وطاقاته السياسية والإنسانية والفكرية ، لأجل الخروج بأفضل النتائج، فقد وجد(اللماني) نفسه إزاء قضية شعب محتل ومهدد في عمقه وجائع وغير امن ، فيما وجد من يدعون أنهم الطبقة السياسية الأصلح لقيادة العراق وإدارة شؤونه (بادعاء أن الشعب قد انتخبهم).. وجدهم (لا يؤمنون بشيء اسمه العراق) وفي مواجهة أوضاع البلاد الكارثية كانوا(ينزعون في الهروب إلى أمام) ، أما الديمقراطية الأمريكية التي جاءت بها واشنطن (هدية غالية)للعراق الجديد ولشعبه(المحرر !)، فقد وجدها السفير مختار لماني،طائفية،جاءت بمتطرف ذو عقلية انتقامية (رئيسا للوزراء) ، ومتطرفا آخر على حافة عدم التوازن (رئيسا لمجلس النواب)،أما النواب فقد جرى انتخابهم عام ٢٠٠٥ على أساس الفتاوى الطائفية والتزوير والتلاعب من كل نوع ، والكثير منهم يعترف في مجالسه الخاصة (كحال أعضاء الحكومة)بان كل القوى التي شاركت بالانتخابات (بدون استثناء) مارست التزوير ، وان ما ارتكب في تلك الانتخابات من مخالفات تفوق كل التصورات ، لكن واشنطن كانت تريد للانتخابات أن تجرى بأي شكل في تلك الفترة لكي تقول ، هذه هي الديمقراطية التي وعدنا بها العراقيين ، ولكي تسوغ لنفسها الادعاء بتحقيق النجاح في العراق، في الوقت الذي كان فيه المأزق الأمريكي في العراق يتسع ويتعمق وينبه إلى الورطة الأمريكية، بخاصة بعد تصاعد أعمال المقاومة وارتفاع حصيلة الخسائر الأمريكية (ماديا وبشريا)، فضلا عن اعتراف الكثير من هؤلاء النواب(في جلساتهم الخاصة)بأن ليس لديهم من شغل شاغل سوى جمع الأموال والسفر في عواصم العالم ، كون ذلك هو الوسيلة الوحيدة لديهم للتهرب من مواجهة الحقائق المرة لشعب يموت بشكل يومي،والابتعاد عن الظروف الصعبة التي يعيشها شعب العراق في ظل غياب كل الوسائل التي تمد الحياة

بديمومتها وفي مقدمتها الأمن والخدمات .

في هذا الكتاب، محاولة لتقديم (جوانب مهمة) من صورة المشهد العراقي بعد أكثر من سبع سنوات من الاحتلال ،يجمع تفاصيلها إطار عام يتشكل من رؤية ووجهة نظر (السفير مختار لماني) بشأن الفترة الحرجة والصعبة التي عاشها في العراق (آذار ٢٠٠٦ –شباط ٢٠٠٧) مبعوثا للجامعة العربية ، وما بذل من جهود لمعالجة الجسد العراقي من إدمان الكوارث ، من خلال محاولاته في إيقاض (توافق العراقيين) الذي كان مخدرا بفعل جرعات الترياق القديم –الجديد (فرق تسد) الذي طالما كان المستعمرون يحرصون على التسلح به ضد الشعوب قبل القنابل والصواريخ والبارود والمدافع والطائرات.

وبرغم كل الظروف الصعبة والمنغصات والمعاكسات،لم ييأس (اللماني) في محاولاته الحثيثة لمساعدة العراقيين وتامين فرص نجاح مشروع توافقهم، والتي استمرت(سنة)كان قد وصفها بنفسه بأنها: (سنة قلقة وعنيفة ستبقى ذكرياتها تطاردني ما حييت ... لاشيء في الكون يستطيع أن يمسح من ذاكرتي غلالة الحزن عن هذه السنة، حيث حمل كل يوم وكل أسبوع حصة من الكوارث المتتالية ، هذه الكوارث–لا ننساها ولكن نتعود عليها – كما تقول أغنية المغني البلجيكي جاك بريل التي كانت على قرص مدمج يضم أغانيه من بين قلة أشيائي في العراق) .

إن مجموعة الصور المتفرقة عن أحداث جرت في تلك السنة التي عاشها السفير مختار لماني في العراق ، أو في سنوات سبقتها أو تلتها ، تشكلت على صفحات هذا الكتاب من حوارات مطولة جمعتني بالسفير مختار لماني قبل أن يترك مهمته كسفير للجامعة العربية في العراق أو بعدها ،ومن وجهات نظر ورؤية متفحصة لكل حدث.. وهي صور تشكل، بمجموعها وترابطها وتفاعلاتها مع بعض،محاولة لوضع الأحداث في سياقها الصحيح ضمن تاريخ عراقي يتسم (بقصد وفعل

فاعلين) بالالتباس وخلط الأوراق .

ومن هنا تبرز أهمية هذه المحاولة لتحريض ذاكرة السفير مختار لماني في استحضار أحداث تلك السنة التي عاشها في العراق سفيرا للجامعة العربية ، وتسجيل روايتها بحيادية ووضوح. فشهادة السفير مختار لماني التي سنجدها على صفحات هذا الكتاب، تكتسب أهمية استثنائية، كونها شهادة من شخص مجرد من أية رغبات ذاتية أو خاصة ، سوى حبه للعراق وانتمائه إلى أهله ، ولم يكن همه سوى المساهمة في وصل ما نقطع أو لحم ما انكسر أو رتق ما تمزق ، وبما يجعل الحلول حاضرة في تعزيز قدرة العراقيين على الوفاق والحرص على عراق الحاضر والمستقبل وعدم الوقوع أسرى الماضي ، مهما كانت النظرة للماضي (قاتمة أو وردية) . كما أن شهادة (اللماني) لم تأت من خلال تحليلات أو توقعات سياسية أو قراءات اجتماعية واقتصادية أو دراسات أكاديمية ، بل جاءت بتجربة حياتية مريرة عاشها السفير مختار لماني في المنطقة الحمراء (red zone)، واطلع فيها على فاجعة العراقيين وعلى ممارسات الاحتلال وأعوانه، وضحايا (ترياق) الطائفية والعنصرية الذي حملته (وصفات) المحتلين ،لتمرير سياساتهم في تدمير العراق وتمزيق شعبه وكيانه الوطني .